

تمثيلات الأنا والآخر وتمزق الذات بين الانتماء والاعتراب في رواية "على الضفة الأخرى من الوهم" لحبيب مونسي - مقارنة نفسية

بوقندورة سامية

طالبة دكتوراه، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم – الجزائر

samia.bougandoura.etu@univ-mosta.dz

قاضي الشيخ

أستاذ تعليم عالي، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم – الجزائر

cheikh.kadi@univ-mosta.dz

ملخص البحث

تتغيأ هذه القراءة مقارنة رواية على الضفة الأخرى من الوهم لحبيب مونسي وفق رؤية نقدية لاستنطاق جدليات الأنا والآخر؛ بكونها فضاء نفسيا كثيف الدلالات تُستعاد فيه الذات الساردة وهي تُعيد كتابة وجودها على تخوم القلق والذاكرة والانشطار، أين تنفذ الدراسة إلى تمثيلات الأنا في تماسها الدائم مع الآخر، من منطلق أن هذه الثنائية نواة بنيوية في تشكّل الشخصية السردية ومسارها الوجودي، وتسعى المقارنة إلى تفكيك آليات تشكّل الأنا الروائية وهي تتغذى من ذاكرة مثقلة بالذنب، وتتشظى تحت وطأة الاعتراب، فأوضحت الذات كيانا متصدعا يبحث عن تماسكه في مرآيا متعددة، وفي المقابل، لا يظهر الآخر في صورة واحدة جامدة، حيث يتناسخ في وجوه متعددة: الغريب الذي يوقظ الهواجس، والمرأة بوصفها مرآة الرغبة والانكسار، والجماعة بما تحمله من سلطة وقمع، وحتى الذات المقموعة التي تنقلب إلى آخر خفي يسكن الداخل ويؤرقه، وقد استندت الدراسة إلى منهجية التحليل النفسي، مستثمرة مفاهيم مركزية من تصوّرات فرويد حول اللاوعي والذنب، وذاك لاكان في جدل الأنا والآخر وصورة المرأة، وبول ريكور في فهم الهوية السردية بوصفها بناء تأويليا متحركا، لتخلص الدراسة إلى أن الرواية لا تُشَيِّ الآخر لكونه خصما خارجيا فقط، حيث تمنحه بُعدا تكوينيا، إذ يصبح شرطا لازما لفهم الذات واكتمال وعيها بذاتها، لتكشف الرواية من خلال بنياتها النفسية العميقة أن الهوية تمثل مشروعا مفتوحا على التحول الدائم يتخلّق في جدل مستمر بين الأنا والآخر، بين الذاكرة والحلم، وبين الوهم وإمكان تجاوزه.

الكلمات المفتاحية: الذات، الآخر، النقد النفسي، الهوية، الاعتراب، الصراع الداخلي.

Representations of the Self and the Other and the Fragmentation of Identity between Belonging and Alienation in Habib Mounsi's Novel *On the Other Shore of Illusion*: A Psychological Approach

✉ BOUGANDOURA Samia

Doctoral Student, at Abdelhamid Ibn Badis, Mostaganem University (Algeria)

keltoum.derkaoui@inre.dz

✉ Kadi heikh

Professor at Abdelhamid Ibn Badis, Mostaganem University (Algeria)

cheikh.kadi@univ-mosta.dz

ABSTRACT:

This reading adopts a critical approach to Habib Monssi's novel *On the Other Shore of Illusion*, seeking to interrogate the dialectics of the self and the Other as a psychologically dense space of signification. Within this space, the narrating self is reconstituted as it rewrites its existence along the borders of anxiety, memory, and fragmentation. The study probes the representations of the self in its constant contact with the Other, considering this duality a structural nucleus in the formation of the narrative character and its existential trajectory.

The approach aims to deconstruct the mechanisms through which the novelistic self is constituted as it feeds on a memory burdened with guilt and splinters under the pressure of alienation. As a result, the self emerges as a fractured entity, searching for coherence across multiple mirrors. Conversely, the Other does not appear in a single, static form, but rather proliferates into diverse figures: the stranger who awakens latent anxieties, the woman as a mirror of desire and rupture, the collective with its weight of authority and repression, and even the repressed self itself, which turns into a concealed Other inhabiting the interior and haunting it.

The study is grounded in a psychoanalytic methodology, drawing on key concepts from Sigmund Freud's reflections on the unconscious and guilt, Jacques Lacan's dialectic of the self and the Other and the mirror stage, and Paul Ricoeur's understanding of narrative identity as a dynamic, interpretive construction. The analysis ultimately concludes that the novel does not reify the Other merely as an external adversary; rather, it endows the Other with a constitutive dimension, rendering it a necessary condition for self-understanding and the completion of self-awareness. Through its profound psychological structure, the novel reveals identity as an open-ended project of perpetual transformation, generated within an ongoing dialectic between the self and the Other, between memory and dream, and between illusion and the possibility of transcending it.

KEYWORDS: Selfhood, the Other, psychoanalytic criticism, identity formation, alienation, inner conflict.

1. مقدمة:

تعدّ الرواية محمولاً ثقافياً هوياتياً يبرز تشظيات الذات وصراعها الجدلي مع محاور الوجود الأخرى، لتمثّل بذلك مرآة عاكسة لمقاصد المفكّرة الشعبية على امتداد الخارطة الحياتية، وتطهيرا سرديا لغياهب النفس في باطن النص الإبداعي، فجماالية النص الروائي لا تتحدد في معيارية المبنى بقدر ما تصل لهوية المعنى وقدرته الفاعلة على ترسيم الواقع الإنساني، طارحة بذلك العديد من الثنائيات الثقافية حول نسق الهوية والاختلاف، والوعي بالذات، لتشكل الرواية معطى ثقافيا يحاور جدليات الأنا والآخر، والمركز والهامش وغيرها من القيم الثقافية التي نسجها القلم الروائي برؤية فانتيستيكية حارقة، فهي دليل الحياة والجنس التعبيري الذي يُعنى بمشكلات الذات وصراعها مع باطنها النفسي والآخر المختلف باختلاف صوره وحركاته، والقارئ لمختلف النصوص والأعمال الإبداعية في الساحة الغربية والعربية تحديدا يلاحظ مدى اشتغال الخطاب الروائي على تعرية وتمثيل هوية الواقع النفسي والتاريخي والاجتماعي، وفي صورة مطابقة تمثل الرواية الجزائرية المعاصرة ملمحا ثقافيا يعكس نسق الانتماء والبعد الهوياتي لدى صنّاع الخطاب الروائي؛ حيث أبدعوا في محاكاة صور الأنا والآخر في أشكال تعبيرية ترنو لمعالجة وكشف هوية الواقع الحياتي لتفكيك الذات المهزوزة أمام صدمة الحداثة، والهجرة، والعنف، والفقدان، والاعتراب الهوياتي وغيرها من الصدمات الثقافية التي شكّلت مربط الفرس في المنجز الروائي الجزائري الواسف لجدليات الصراع واللقاء الإنساني بين الأنا والآخر الداخلي أو المغاير المختلف.

والناظر في سلطة الخطاب الروائي الجزائري يجد رواية "على الضفة الأخرى من الوهم" للحبيب مونسي بوصفها نموذجا عن كتابة في قلق الذات أكثر مما هي سرد للوقائع، إذ تُشيد عالمها الروائي على أنقاض أنا مأزومة ومشدودة بين ذاكرة مثقلة بجراح لا تندمل، وحاضر مرتبك لا يمنح الطمأنينة، ومستقبل يلوح كاحتمالٍ مقلق لا كأفق خلاص، فمنذ العتبات السردية الأولى، يتكشف حضور الأنا القليقة بوصفه نواة السرد، وذاتٌ تتنازعها رغبة حارة في الانفلات من قبضة الماضي، وخشية دفينّة من عودته في هيئة أقنعة جديدة، فتعيش في حالة تذبذب وجودي دائم، فلا تستقر على يقين ولا تطمئن إلى وعد، وفي مقابل هذا الاضطراب الداخلي، يتشكل الآخر كقوة رمزية متعدّدة الوجوه، متقدّما أحيانا في هيئة تهديد خانق، وأحيانا أخرى في صورة خلاصٍ محتمل، لتنشأ بين الطرفين علاقة جدلية متوترة تتأرجح بين النفور والانجذاب، وتفضح هشاشة الأنا وتشظيها بدل أن تمنحها تماسكا، حيث يقدم عبد الرحمن في صورة شخصية سردية تعكس حالة نفسية كثيفة تتقاطع في وعيها صراعات الهوية، وأثقال الذاكرة الاستعمارية،

وحرب أهلية، وانكسارات التجربة، والرغبة المؤلمة في إعادة تشييد الذات من شظاياها المتناثرة؛ إذ يصاغ الآخر في تمثالاته المختلفة -حبيبا أكان أم غريبا، جماعة أم امرأة- مرآة نفسية قاسية تعكس للأنا ما تحاول إنكاره أو كَبْتَه، وتدفعها رغم مقاومتها إلى مواجهة ماضيها، وإعادة مساءلة مسارها الوجودي، واستشراف مستقبل لا يُبنى إلا عبر هذا الاحتكاك المؤلم بين الذات وظلالها.

وتأسيسا على ما سبق ذكره، تأسست رؤية البحث على مقارنة وتمحيص رواية على الضفة الأخرى لتفكيك واستنطاق البُعد النفسي والهوياتي بين الأنا والآخر وكيفية امتداد الصراعات إلى الذات الداخلية، وصولا للآخر، وقد أُعْتِمِدَ المنهج النفسي كمقاربة تحليلية للكشف عن التوترات اللاواعية التي تحكم علاقة الذات بالآخر، واستثمار مفاهيم التحليل النفسي في مقارنة التشظي، والاعتراف والعقد النفسي واغتراب الذات في محاولة لفهم الذات الفردية في زمن التفتت والتشظي، والتهجين الثقافي، والعنف المادي والمعنوي، والتمزق بين المرجعيات والانتماءات.

وتنطلق رؤية البحث من إشكالية معرفية مفادها: كيف تجسّد حضور الأنا النفسي والآخر المغاير في رواية على الضفة الأخرى؟ وكيف نظر التحليل النفسي للأدب والنقد؟ وكيف يتشكّل الآخر في خطابها السردى والنفسي؟ وإلى أيّ مدى حضر بُعد الاغتراب والتمزق النفسي في الرواية؟ هي أسئلة مختلفة تحاور شفرات البحث بالتحليل والوصف لمعرفة كيفية حضور جدليات الأنا والآخر في المنجز الروائي الجزائري عند لحبيب مونسي ومدى استثماره لآليات التاريخ والمجتمع في تشكيل نص ينطلق من أعماق النفس صوب تصدعات الوجود الخارجي وتأثيره على البناء الاجتماعي والثقافي داخل المجتمع الجزائري.

2. التحليل النفسي والأدب ونقده مقارنة معرفية:

تزخر رفوف المكتبات العامة منها والخاصة بسيلٍ متدافع من الروايات القادمة من ثقافات ولغات شتى، غير أنّ بعض هذه الأعمال يفرض حضوره بقوة تتجاوز الزمن والحدود، فتُعاد طباعته مرارا، ويتحوّل إلى عنوان مُرَشَّح دائم للقراءة يتناقله القراء والنقاد بوصفه تجربة لا غنى عنها، ويعدّ دوستوفسكي أحد الأسماء التي يكاد الإجماع حولها كلّما ذُكرت الرواية الخالدة، لا لفُرادة أسلوبه، وإنّما لكونه أحد الروّاد الكبار في تشييد معالم الرواية النفسية، ولعلّ هذا التصنيف لم يأت من فراغ، إذ إنّ عالمه السردى ينفذ إلى أغوار النفس البشرية كاشفا عن صراعاتها العميقة وتناقضاتها الخفية، وهو ما

شدّ انتباه سيغموند فرويد الذي وجد في أدب دوستوفسكي مادة خصبة لتأملاته التحليلية، فقد شكّل الأدب منذ البدايات الأولى للمشروع الفرويدي رافداً أساسياً في بلورة مفاهيم التحليل النفسي، حيث لم يتوقف فرويد منذ أواخر القرن التاسع عشر عن وصل قراءاته التراجيدية، مثل: أوديب ملكا لسوفوكليس وهاملت لشكسبير، بتحليل الحالات المرضية والتحليل الذاتي لنفسه، إلى أن تبلورت لديه مفاهيم محورية، في مقدمتها عقدة أوديب، ولم يكن غريباً أن يضيف لاحقاً رواية الإخوة كارامازوف إلى هذا المتن، عاداً إياها من أعظم ما كتب في الأدب الإنساني، ومُقرّاً في الوقت نفسه بعجز التحليل النفسي -بأدواته العلمية الصارمة- عن الإحاطة الكاملة بسرّ الخلق الفني، وهو إقرار يكشف عن توترٍ خلاق بين العلم والفن، بين التفسير والتحليق الجمالي (فرويد، 1975، الصفحات 88-94).

ليساهم هذا التلاقي المبكّر بين التحليل النفسي والأدب في تشكيل ملامح الرواية النفسية بوصفها نمطاً سردياً يجعل من الوعي الداخلي مسرحاً للأحداث، بحيث تتراجع الوقائع الخارجية لصالح التدفقات الشعورية، وتداعي الأفكار، والتوترات الذهنية التي تتحرك داخل ذاتٍ واحدة أو ذاتٍ متعددة، وقد أسهم هذا التحول في إعادة توجيه النقد الأدبي نحو مساءلة العلاقة بين الأثر الأدبي والإنسان، والنص وسيرة مبدعه، وهي الإشكالية التي أضحت لاحقاً محورياً للجدل بين أنصار الانطلاق من النص وأنصار العودة إلى السياق النفسي والاجتماعي للكاتب، ففي فرنسا، مثلاً، لم ينشأ الاهتمام بالتحليل النفسي في أحضان الطب وحده، حيث انبثق من دوائر الأدب والفن، إذ تجاوز هذا المنهج حدوده الطبية الصرفة ليغزو مجالات متعددة من النقد الأدبي إلى الفلسفة والتاريخ الثقافي، وقد مهّد لهذا التداخل نقادٌ مثل: هيبوليت تين وهانكان الذين سعوا إلى تأسيس نقد علمي يفسّر العمل الأدبي بالعودة إلى أسبابه النفسية والاجتماعية، وإن ظلّ هذا التفسير في كثير من الأحيان أسير التعميم أو الاختزال، ومع ذلك، فقد فتح هذا المسار آفاقاً جديدة أمام القراءة النقدية ممكّناً من النظر إلى الأدب بوصفه تعبيراً معقداً عن الوعي واللاوعي وعن التجربة الإنسانية في تشظّيها وتناقضها، لا عبارة عن انعكاس آلي للواقع (مؤلفين، 1978، الصفحات 40-52)، الأمر الذي ولّد العلاقة بين التحليل النفسي والأدب علاقة أخذ وردّ يُغني فيها الأدب النظرية النفسية بعمق تجاربه الرمزية، فيما يمنح التحليل النفسي النقد أدوات جديدة لفهم النص شريطة ألا يتحوّل إلى سلطة تفسيرية مطلقة تُفرغ العمل الأدبي من ثرائه الجمالي وتعدده الدلالي.

يمضي النقاد -منذ تشكّل المنهج النفسي- في تفكيك وجوه قوّته ومواطن وهنه بين مؤيد يرى فيه مفتاحاً إلى دهاليز النص، ومعارض يتخوّف من سطوته التفسيرية، غير أنّ ما يكاد يحظى بإجماع خفيّ هو

استحالة الحديث عن منهجٍ نقيٍّ منزّه عن التفاعل والتأثير، إذ لا يولد أيّ نسق معرفي في فراغ، ولا يعمل الأدب بوصفه خطاباً إنسانياً كثيفاً خارج شبكة التأثيرات المتبادلة مع العلوم الإنسانية الأخرى؛ فالقراءة النفسية على تنوّع مقارباتها وتعدّد رهاناتها التأويلية تملك قدرة لافتة على اقتفاء أثر الدلالة في أخفى تجلياتها من تنظيمات الاستهيام إلى الكلمات المفصلية، وحروف النص، وأدواته النحوية، وتقطيعاته الإيقاعية، وكأنّها تنصت إلى همس اللغة قبل أن تصير خطاباً، غير أنّ هذا الوعي الدقيق بطبقات النص لا ينبغي أن يفضي إلى إخضاع الأدب إخضاعاً قسرياً لمقولات التحليل النفسي بقدر ما يهدف إلى قلب المعادلة ذاتها، بحيث يكون التحليل النفسي هو المستفيد من الأدب، بعد ما أصاب ممارساته الجمود والتكرار، فيستعيد عبر النصوص الأدبية طاقته التأويلية ومرونته المفهومية، الأمر الذي يبرز القيمة التاريخية لفرويد بكونه فاتحاً لأفق تحليلي خصّب العلاقة بين الأدب والتحليل النفسي بمقاربة متعددة الأبعاد، جعلت من الرواية والأسطورة والحلم وزلات اللسان، وفضاءات الكتابة مختبراً حياً لفهم النفس الإنسانية (حيدوش، 2009، الصفحات 63-66)، ثم جاء جاك لاكان ليعيد قراءة هذا الإرث في ضوء اللسانيات البنيوية كاشفاً أنّ اللاشعور ليس جوهرًا غامضاً معزولاً، وإنما بنية لغوية، وأنّ اللغة لا تقول ما نريد قوله بقدر ما تفضح ما لا نعيه، فصار الأسلوب هو الأثر الأصدق للنفس، وصارت الانزياحات والاستعارات والكنيات مسارب خفية يعبرُ منها المكبوت إلى سطح الخطاب، ومع التحوّلات البنيوية وما بعدها، تراجع النقد النفسي البيوغرافي لصالح استهداف النص ذاته (الكريم، 1999، الصفحات 76-77)، كما دعا رولان بارت، ثم تطوّر الأمر مع جان بيلمان نويل إلى مفهوم تحليل النص؛ حيث يلتقي لاشعور الكاتب بلاشعور القارئ داخل فضاء لغوي مستقلّ تتحوّل فيه العلاقة الثلاثية التقليدية إلى شبكة جديدة من التفاعل بين النص والنقد والتلقي (المودن، مامعني أن تكون ناقدًا نفسيًا اليوم، 2019، صفحة 07)، وعلى هذا الامتداد التاريخي، يتأكد أن التحليل النفسي أضاء على الأدب آليات تشكّل الكتابة ذاتها، فيما منح الأدب للتحليل النفسي فرصة تجاوز الحقل الطبي الضيق، ليصير نظرية أوسع لفهم الصيرورة الإنسانية؛ فلا تعود العلاقة بين الأدب والتحليل النفسي علاقة تبعية أو هيمنة، وإنما علاقة جدلٍ خلاقٍ تتغذى من التوتر وتنهض على تبادل التأثير، حيث يظلّ النص الأدبي عصياً على الاختزال، ومفتوحاً على تأويلات لا تنفذ، بقدر ما تظلّ النفس الإنسانية لغزاً لا يُستنفد بكشف واحد.

وبعيدا عن المعطى التاريخي، فإنّ مسألة تطبيق المنهج النفسي على الرواية لم توجد عَرَضاً ولا تكونها خياراً عابراً ضمن المناهج النقدية، حيث تركزت تدريجياً حتى غدت من أكثر المقاربات هيمنة في قراءة الخطاب السردي، لما أتاح من قدرة على النفاذ إلى البنى العميقة للشخصيات، وكشف دوافعها اللاواعية، وصراعاتها الداخلية، وعلاقتها بالآخر وبالعالم، وقد كان حظّ الرواية العربية من هذا المنهج متشابكاً مع علم الاجتماع وأسئلة الصراع الحضاري، حيث انعكست في كثير من النصوص ثنائية الأنا والآخر عبر تمثيلات متعدّدة للاختلاف والتشابه، والاستغراق في الذاكرة الجمعية والتراث، واتخاذ موقف نقدي من الحضارة الغربية، مع إبراز ثيمات نفسية واضحة المعالم مثل: الاغتراب، والعنف، والرغبة، والانتقام الجنسي، وانشغلت روايات عديدة بصورة المرأة الشرقية والرجل الغربي، أو الرجل الشرقي والمرأة الغربية داخل شبكة علاقات مشحونة بالتوتر الرمزي والثقافي، كما تأسست أخرى على صراع الأجيال أو صدام الحضارات، مثل: موسم الهجرة إلى الشمال للطبيب صالح التي جعلت من البُعد النفسي أداة لفهم تمزق الهوية، أو أبو جهل الدهاس لعمر بن سالم، وفي مقابل هذا المنحى، انفرد طه حسين بمحاولة تحليل شخصية الأديب من الداخل في روايته الأديب، غير أنّ تردده في تعميق الصراع النفسي المرتبط بالحيرة الوجودية والاختيار بين السفر والزواج، جعل الرواية - في نظر بعض النقاد - أقل تأثيراً من غيرها، ومع تطور التجربة السردية العربية، برزت أعمال مثل: رواية الحي اللاتيني بوصفها من أوائل النصوص التي مارست التحليل النفسي للشخصية بعمق وفاعلية عبر المونولوجات الداخلية والمحكيات النفسية، مما أسهم في مساءلة العلاقة بين السارد والشخصية، ومنح الكائن الروائي وجوداً شبه مستقل (المودن، الرواية والتحليل النصي قراءة من منظور التحليل النفسي، 2009، الصفحات 11-12)، فأضحى المنهج النفسي أكثر من كونه عدسة تفسيرية تُسَقَط على النص من خارجه، إذ تسرّب إلى نسيجه الداخلي ليصبح جزءاً من بنيته السردية العميقة يوجّه حركة الشخصيات وينظّم إيقاع الأحداث، ويكشف ما يتخفى خلف القول من دوافع وانكسارات ورغبات مكبوتة، ما ساهم في تشكيل السرد العربي بصفته فضاء لاستبطان الذات لا مجرد حكاية للوقائع، فتشابكت فيه أسئلة الهوية مع قلق الانتماء، والتقى الوعي باللاوعي في مساحات سردية مشحونة بالتوتر الرمزي والثقافي، ولم تعد الرواية تُقرأ على أنّها انعكاس مباشر للواقع، وإنّما مختبر لتفكيك التجربة الإنسانية في تعقيدها وتناقضها ضمن أفق حضاري مأزوم يظلّ مفتوحاً على تعدّد الدلالات واتساع إمكانات التأويل.

والناظر في مسار الرواية الجزائرية وخاصة المعاصرة يلاحظ نماذج وافرة من العيّنات الثقافية التي جسّدت الواقع الهويّاتي والحياتي داخل المجتمع الجزائري، حيث صيغت مختلف النصوص وفق وعي جمالي فاحص بما يكتنف الإنسان الجزائري في ظل ظروف وعراقيل أثقلت كاهله، الأمر الذي تسبّب في مآخذ نفسية ونتائج أثّرت على المفكّرة الشعبية وتعدّ رواية على الضفة الأخرى من الوهم للروائي الجزائري لحبيب مونسي ضمن المسار التحولي الذي عرفته الرواية الجزائرية الحديثة، حيث لم يعد السرد منشغلا باستعادة الوقائع التاريخية أو تمثيل الصراع السياسي المباشر بقدر ما انصرف إلى مساءلة الذات في هشاشتها، والإنصات إلى تصدّعات الأنا وهي تواجه عالما مأزوما بالخذلان والعنف والاغتراب، واستنادا على ذلك، تبرز ثنائية الأنا والآخر بوصفها محورا بنيويا وجماليًا يحكم حركة السرد، إذ لا يظهر الآخر كمرآة قلق تعكس انكسارات الذات وتفصح هشاشتها الوجودية، فيتحوّل الصراع من مواجهة خارجية إلى احتكاك داخلي بين وعي ممزّق وذاكرة مثقلة بالتجارب المؤلمة؛ فالأنا الروائية في هذا النص لا تستقر على هوية ثابتة، حيث تتشكّل عبر علاقتها بالآخر، سواء أكان هذا الآخر فردا أو مجتمعا أو فضاء رمزيا، لتغدو الهوية نفسها نتاجا لصراع مستمر بين الانتماء والاقتلاع والحضور والغياب، وضمن هذا الاشتغال، يزواج مونسي بين السرد النفسي والتحليل الاجتماعي معتمدا بنية سردية متشظية ولغة موحية تمنح الشخصية عمقا داخليا يتجاوز الوصف السطحي إلى استبطان الأسئلة الوجودية الكبرى، فالرواية لا تعنى بتفكيك وهم الواقع، بقدر ما تمضي أبعد من ذلك إلى مساءلة وهم الذات ذاتها جاعلة من القارئ شريكا في هذا القلق التأويلي، ومن النص فضاء تتقاطع فيه التجربة الفردية مع الوعي الجمعي في كتابة تجسّد تحولات الرواية الجزائرية بعد التسعينات، وتكشف عن انفتاحها على أفق نفسي وجمالي جديد.

3. الأنا في مواجهة الآخر: سردية التشظّي الاغترابي والبحث عن المعنى في رواية على الضفة الأخرى من الوهم

تزاوج رواية على الضفة الأخرى من الوهم للحبيب مونسي بوصفها نصا سرديا معاصرا بين الواقعي والتخييلي، ويجعل من العنف اليومي فضاء كاشفا لصراع نفسي عميق بين الأنا والآخر، حيث يُقدّم العنف على أنّه حدثٌ وتجلّ لانفجار داخلي مكبوت في الذات الروائية، فالروائي يرصد مظاهر الجريمة في أحياء الضواحي الباريسية لا على سبيل التوثيق، وإنما بوصفها مرآة للتمزّق النفسي والاغتراب الوجودي، فأضحى الليل مسرحا لتكرار الخصومات والنهب والابتزاز، وتحوّل صفارات الشرطة إلى إيقاع دائم يرافق وعي

الشخصية ويؤكد شعورها بالحصار واللاانتماء، وضمن هذا التوصيف السردى تتشكل صورة الآخر بوصفه تهديدا دائما، مهاجرا مشبوها، أو مجرما غامضا تُسقط عليه شكوك الجماعة ومخاوفها، كما في مشهد اعتقال الرجل البرتغالي؛ حيث تبرز لغة الاعتذار بالكاء والانكسار، فيكشف السرد هشاشة الإنسان أمام سلطة الاتهام ونظرة المجتمع، غير أنّ ذروة الصراع النفسي تتجلى حين يتحوّل البطل عبد الرحمن من شاهد إلى فاعل، إذ ينفجر المكبوت داخله في لحظة عنف جسدي عارم تتدفق فيه الطاقة الغريزية من الأعماق، وتنتقل من الصدر إلى الذراعين (مونسي، على الضفة الأخرى من الوهم، 2002، الصفحات 08-09)، لتتجسّد في قبضة مشدودة تمحو ابتسامة الآخر الساخرة، ليمثل العنف فعلا نفسيا قبل أن يكون جسديا، ويكون الآخر مرآة تستفزّ الأنا وتكشف قلقها وازدواجها، فتتهار الحدود بين الدفاع والعدوان، وبين الضحية والجلاّد، وداخل فضاء الاشتغال السردى، يقدّم مونسي رواية تنفذ إلى البنية النفسية للشخصية، وتبرز كيف يتحوّل الصراع بين الأنا والآخر إلى صراع داخلي يعرّي هشاشة الهوية في فضاء الاعتراب والعنف، ويجعل من الرواية كتابة في الوعي واللاوعي معا.

وتتشكّل شخصية البطل عبد الرحمن بوصفها حمولة نفسية كثيفة تتراكم في نسيجها أثقال الحياة ومرارة الاعتراب عن وطن غارق في مستنقعات التبعية والعنف الإنساني، فرسمت الشخصية تمثيلا سرديا مركزيا لأنا قلقة، منكسرة، ومشدودة على الدوام إلى ماضي مأزوم لا يكفّ عن مطاردتها، ومنذ مطلع الرواية، يضعنا السرد أمام جسدٍ مقلّ بالهزيمة يجرّ نفسه في شارع كئيب تحت مطر بارد وفي فجر شاحب وكأنّ المكان والزمان يتآمران على تعرية داخله المضطرب؛ فالخطوات المتثاقلة والبرد المتسلّل إلى العظام، وانكماش الجسد على ذاته، ليست سوى علامات خارجية لاعتراب أعمق، حيث تتشكّل حركة السير إلى استعارة لتيه وجودي، ويغدو الجسد خريطة للانكسار النفسي، والروائي مونسي يؤثّر بطله كشخصية كذات مأزومة تحمل تاريخها المثلث في تفاصيلها اليومية، وتعلن منذ البدء أنّ الرواية كتابةٌ في قلق الأنا، وشروخ الهوية، وتصدّعات الوجدان الإنساني المتخفّي خلف الصمت والمطر، ودليل ذلك "راح يتقدم ببطء على الرصيف، لا يسمع سوى وقع خطواته على البلاط، وهوينبعث رتيبا، وكأنه أنغام موسيقى تمثيلية تصاحبه في مشهد من المشاهد" (مونسي، على الضفة الأخرى من الوهم، 2002، صفحة 04)، كما تعتمد الرواية على تسليط الضوء على ظاهرة إنسانية عميقة الأثر، هي ظاهرة الغربة أو الاعتراب، بوصفها هاجسا وجوديا استبدّ بوجودان أجيالٍ واسعة من شباب العالم الثالث، أولئك الذين دفعتهم قسوة الواقع وضيق الأفق إلى الارتقاء في حضن الوهم، وهم يشدّون الرحال نحو الغرب متخيّلين فيه فضاء الرفاه المطلق

والسعادة المنشودة والتحرّر الموعود، وضمن هذا الفضاء السردي ينسج الكاتب صورة بالغة الكثافة للاغتراب، بوصفها حالة نفسية خانقة، إذ يرسم عبد الرحمن محاصرا بضباب كثيف ومطر لا ينقطع، ويهزّ رأسه فتتساقط قطرات الندى عن شعره، بينما ينغلق عليه البياض الشاحب كجدارٍ رخوّ سميك، يعزله عزلة مرعبة، ويختزل العالم من حوله في دائرة ضيقة لا يسكنها سوى وحدته ووحشته؛ حيث نقرأ ذلك في قوله: "هزّ رأسه لينقضّ عن شعره موج قطرات الندى التي خلفها الضباب الكثيف، ذلك الضباب الذي أرخى سدوله بعد رخو، فاصطدمت قطراته بيسار الفتى فاصنع له عزلة رهيبة، وارتدت عليه كستارٍ من وابل المطر، حتى أصبح بياضه الشاحب كجدار ضيق، لا يسكنه سوى وحدته وعزلته، ضمن دائرة شاحبة تتحرك معه بحركة بطيئة وثابتة، كأنها زنزانة متنقلة، يصطحبها معه أينما سار، بلا بابٍ يفتح له، ولا منفذٍ يفرّ منه" (مونسي، على الضفة الأخرى من الوهم، 2002، الصفحات 17-18)، فصارت الغربة زنزانة متنقلة يحملها معه أينما سار، بلا باب ولا منفذ، في استعارة بليغة عن انسداد الأفق النفسي وضياح المعنى، وتتعدى الغربة تجربة عبد الرحمن لتشمل والدته السيدة زينب التي تجسّد اغتراباً من نوع آخر، اغتراب الروح المعلقة بالوطن، إذ لا تجد متنفساً لحينها سوى الابن تفيض عليه بأسماء الأهل والأماكن والذكريات، وتستعيد الأحداث بصوتٍ مشوب بغنّة حزينة تنبع نبراتٍ من أعماق قلبٍ أتعبه البُعد (مونسي، على الضفة الأخرى من الوهم، 2002، الصفحات 63-64)، وبهذا التداخل بين اغتراب الجسد في المنفى واغتراب الروح في الوطن تبرز رؤية جمالية مأساوية للغربة، من منطلق كونها قدراً نفسياً مشتركاً يمزّق الذات بين وهم الخلاص ومرارة الفقد، ويحوّل الحُلم بالهجرة إلى تجربة وجودية مثقلة بالوحدة والحنين والانكسار.

كما تقدّم رواية "على الضفة الأخرى من الوهم" للحبيب مونسي رؤية شاهدة على البصمة العميقة للهوية الجزائرية، وعلى محنة الجزائر في حقبة العشرية السوداء، أين صارت الأحداث الوطنية مرآة تعكس صراع الأنا مع الآخر، وتجلياً لتشظي الذات في مواجهة واقع متحول وعنيف، ففي استحضارها لتلك الظلال القاتمة، يحاول الروائي ربط الأحداث الوطنية بشخصياته وأحداث الرواية، فيشكّل مشهداً يمزج بين التاريخ والمعاشية النفسية للبطل، عبد الرحمن، ووالده، إذ يروي مشهداً مفصلياً، يقول فيه: "يذكر فقط أنّ قتل الرئيس بوضياف... تنهد عميقاً وغمغم قائلاً: لقد فتحوا باب الشر... وتوالت أمامه صورة

الجزائر دون أن يلمس ساكنها... كان في صمتٍ ثقيل يتقرقز في طريف ما يشبه العبرة" (مونسي، على الضفة الأخرى من الوهم، 2002، صفحة 51).

فأضحى الشاهد الروائي صورة رمزية لبداية محنة الجزائر من الإرهاب، حيث يشعر والد عبد الرحمن بالخراب القادم بعد وفاة الرئيس، في حين يظل الابن عاجزا عن فهم المعاني العميقة لتصريحات والده، حتى تتقاطع الصورة التلفزيونية مع الإدراك الشخصي ليصير الواقع مرثيا ومشهودا، ويدرك القارئ أنّ البلاد على أعتاب العشرية السوداء، وأنّ التشظي النفسي للذات الوطنية ينعكس على الشخصيات، ومع تطور الأحداث وزيارة عبد الرحمن للوطن مع والده، ومروره بالقرية التي نشأ فيها، تتكشف أمامه الحقائق، ويبدأ في فهم ما شاهده على التلفاز وما حاول والده تحذيره منه، فتستحضر الرواية التاريخ الوطني عبر مرآة الفرد المغترب، إذ تصبح الأحداث الواقعية جزءا من سرد الشخصيات، وتنعكس على وعينا بما آلت إليه الجزائر: وضع عبد الرحمن الجريدة على الطاولة، وفي عينيه سواد البند العريض الذي خط بالعنوان الرئيسي... رزرة... إبادة... قتل... لم يستطع عبد الرحمن في أيامه الثلاثة التي قضاه في القرية الحديث عن الإرهاب... وكأنّ الأحداث التي تقع ظلّت في الظل بعد آخر، لا تصل إلى حياة القرية على الرغم من إشارة الجريدة إلى المنطقة وجبالها، وطرقها" (مونسي، على الضفة الأخرى من الوهم، 2002، الصفحات 106-107).

فصارت الأخبار اليومية عن الإرهاب والاعتقالات أشباحا متسللة تظلّل أزقة القرية، تتسلّق جدران البيوت وتهمس في أذني السكان، فتتكشف هشاشة الأنا الوطنية أمام وهج الآخر المستعمر وظلال المليشيات المسلحة، وفي كل ركن من أركان القرية، تظهر علامات التشظي الاجتماعي والنفسي: خوف دائم يثقل الصدور، وقلوب تتردّد بين الحذر والارتجاف، وحياة يومية مرصّعة بالغياب والتهديد، كأنّ التاريخ نفسه قد خطّ على جلد الأرض الجزائرية أن تتعايش مع مأساة الغربة والاعتراب النفسي حتى داخل وطنها، فمثّلت داخل هذا الفضاء المكاني الصرخات المكتومة للناس، وخفقان قلوبهم المتخوفة، جزءا من سرد الحياة، وكأنّ كل حجر في الطريق يروي قصة مأساة لم تُسمع بعد.

كما أثّرت رواية "على الضفة الأخرى من الوهم" صورة عميقة للاستعمار الفرنسي وما تركه من أثر بالغ على الجزائر وشعبها، لتصبح صفحات الرواية مرآة لتلك الحقبة المظلمة التي حاول فيها المستعمر طمس الهويات واللغات والدين والعقائد، وإخضاع الفرد والجماعة لسلطة القهر، فمن خلال شخصية والد عبد الرحمن، قدّم الروائي صورة للشخصية الثورية المكافحة، قائلا: "لقد ظلّم أخي مرتين، أولا من

الاستعمار حيث صادر أرضه، وثانيا من الثورة حين اتهم بالتعاون مع الفلّاقة..." (مونسي، على الضفة الأخرى من الوهم، 2002، صفحة 101)، لتبرز ازدواجية الظلم الذي وقع على الأفراد، سواء من القوى الخارجية أو من الداخل السياسي، وما تركه من جرح غائر في الذاكرة الجماعية، كما أظهرت الرواية مأساة السيدة زينب -والدة عبد الرحمن- التي عاشت تحت وطأة الخوف الدفين من الغريب، غير قادرة على التحرر من عبء الاستعمار، وهو ما يعكس حال الأسر الجزائرية في تلك الفترة، حيث اختلط القهر اليومي بالخوف النفسي، فكان لكل فرد قصة صراع داخلية تجمع بين الحنين إلى الوطن والاعتراب النفسي العميق، والمقاومة والخوف، والأمل واليأس.

كلّ هذه التعابير الواصفة والإستطيقا الأسلوبية شكّلت رواية محملة بذاكرة التاريخ، وغياهب النفس الجريحة بنكسات الآخر المحتل، لتشكل اللغة أداة لبناء الهوية الوطنية واستدعاء التاريخ المجيد، وتقديم سرد متماسك يجمع بين الواقع والخيال؛ فاستطاع مونسي أن يربط بين الفعل الفردي والتاريخ الجمعي، ويجعل من الرواية مساحة لتفكيك الأنا الوطنية وصراعها مع الآخر المستعمر، كما تصور التشظي النفسي والاجتماعي الذي خلفته فترة الاستعمار وما تلاها من العشرية السوداء، لتظل الرواية شهادة سردية حية على مأساة الجزائر وصمود شعبيها، من أول صفحة إلى آخرها، مجسدة التوتر بين التاريخ والذاكرة والفرد والجماعة والواقع وعوالم الخيال.

وفي نصانية رواية "على الضفة الأخرى من الوهم"، تتحول الشخصيات إلى شرايين حية تنبض في جسد النص، لا مجرد أسماء مكتوبة على صفحات الورق، وأبطال تتقاطع فيهم أبعاد النفس والمجتمع والتاريخ، وفي قلب هذا النسج الروائي، يتجلى عبد الرحمن، الشاب الجزائري المغترب في فرنسا، في صورة الصراع المزدوج بين العنف والندم، والغضب الكامن والرحمة الخفية، طائش وعنيف، وزعيم سابق لعصابة متوحشة، تاركا أثرا من الرعب في الشوارع، غير أنّ ثقل الضمير يطارده، فيعذب جسده وروحه كما لو كان يسعى لتكفير ذنوبه، حتى يتعهد بعدم العودة إلى العنف، ويحقق حلمه في أن يصبح أستاذا، متحديا الماضي بعقدته العنيفة، ومتوجا علاقته بكورين رفيقته الداعمة التي تجسد له مأوى الأمان وبلسم الروح، أمّا كورين، فهي فتاة منفتحة وحرّة، متفهمة للطبيعة المعقدة لعبد الرحمن، تقدّم له الدعم العاطفي والمعنوي، فيصبح وجودها بالنسبة له ضرورة وجودية؛ فحضورها يجمع بين الحنان والتحدي، والحرية والالتزام، لتغدو محورا لتكوين الأنا النفسية للبطل، ومراة لآماله ورغباته المكبوتة، ولا تقل الشخصيات

الثانوية، مثل: ماري وأندريو والعم ديدي والسيد عيسى، أهمية عن الرئيسة، فهي حواشي الروح وألوانها المتعددة؛ تارة تدعم البطل، وتارة تكشف قيود المجتمع وصراعات التاريخ والثقافة، بين الاستعمار الفرنسي ومرارة العشرية السوداء؛ فماري -الغامضة الصامته المليئة بالتناقض- تضيف بُعدا من الغموض النفسي والفلسفي، بينما يمثل العم ديدي الحكيم والأب الروحي مصباحا يهدي البطل في متاهات عقده ومحنه، ويورثه تقاليد المجتمع الجزائري، فيما يختزل السيد عيسى والد عبد الرحمن معاناة الوطن والتضحيات الثورية، ليصبح رمزا للوفاء والإخلاص، أمّا القاتل الغامض، فيضفي على الأحداث رهبة مستمرة، ويجعل التوتر النفسي حاضرا، ليزكّرنا بخطر الآخر المجهول والمستعمر، حيث يكشف الروائي رؤيته الجمالية في انتقاء أسماء الشخصيات، فكل اسم ينسجم مع خصائصه النفسية والاجتماعية والثقافية: فعبد الرحمن يجمع بين العنف والرحمة، وزينب رمز الحنين والانتماء للوطن، وعيسى رمز الورع والتضحية، وكورين مجسّدة للحياة الغربية والانفتاح، وماري تعكس الغموض والفلسفة، لتصبح الأسماء امتدادا للشخصيات، ودليلا على عمق تصوّر الروائي للهوية الجزائرية (مونسي، على الضفة الأخرى من الوهم، 2002، الصفحات 110-124-130).

فمن خلال هذه الشخصيات المتنوعة، يتحول النص إلى مرآة عاكسة لصراع الأنا الوطنية مع الآخر المستعمر، حيث تتجلى هشاشة الفرد والمجتمع، وتتكشف التوترات الداخلية بين الانتماء والاعترا ب، والحنين إلى الوطن والعيش في الغربة النفسية؛ فكل شخصية لوحة نابضة بالحياة ترسم على صفحات الرواية تاريخ الوطن، ونضاله الجماعي والفردى، ومآسيه الإنسانية في زمن الاستعمار وما بعده، فهنا تتشابك الحرية بالعنف، والأمل باليأس، والانتصار بالخذلان في فضاء سردي غني بالبلاغة والجمال، حيث تُسطّر الأحداث بألوان النفوس وتفاصيل الذكريات، فتتجلى عبر تصرفات الأبطال، وقراراتهم، وأحلامهم ومخاوفهم، صور متشابكة للهوية الجزائرية، كما يعكس النص قدرة الروائي على خلق عالمٍ مركّب يمزج بين التاريخ والثقافة والذاكرة الفردية والجماعية، ليصبح كل موقف وكل حوار، ولوحة من صور الحياة الواقعية والمعاناة الإنسانية، تعبّر عن صراع مستمر بين الذات والوطن، والماضي والحاضر، والغربة والعودة، والانكسار والصمود، فأضحى نصا يحتفي بالهوية ويستقصيها، نص يمزج بين الجمال الروائي وبلاغة الفكر، ويحوّل الشخصيات إلى رموز حياة للجزائر، لصراعاتها وآمالها، ولرحلة الإنسان الذي يبحث عن ذاته ووطنه في الآن نفسه.

4. الآخر بوصفه تهديدا وخلاصا – جدلية التنافر والانجذاب:

يتشكّل في رواية على الضفة الأخرى من الوهم صراع الأنا والآخر بوصفه محورا نفسيا ودلاليا عميقا، لا يقوم على مواجهة مباشرة بين ذات وشخصية مقابلة، بقدر ما يتأسّس على توتر داخلي تُسقطه الأنا على العالم المحيط بها؛ فالآخر بنية رمزية متعدّدة الوجوه، تتكاثر بتكاثر مخاوف الذات ورغباتها المكبوتة، فيغدو مرآة تعكس ما تعجز الأنا عن الاعتراف به في ذاتها، فمنذ الصفحات الأولى، يظهر عبد الرحمن ذاتا قلقلة، مأزومة، تعيش هشاشة الانتماء وضياح اليقين، ولذلك، فإنّ الآخر يظهر له دائما في هيئة قوة ضاغطة وحشد بشري كاسح، أو مؤسسات صمّاء، أو علاقات إنسانية باردة، أو أنثى غامضة، أو مجتمع لا يمنح الاعتراف، فهذا التعدّد في تمثّلات الآخر لا يدلّ على ثراء خارجي بقدر ما يكشف عن تشظّي الداخل؛ فكلّ آخر هو في العمق صورة متحوّلة للذات نفسها وهي تواجه حدودها وخيباتها، ولعلّ المشهد الواصف للميترو مثال أوليّ مكثّف لهذا الصراع؛ إذ تُقدّم الجموع البشرية بوصفها تدقّقا آليا، جارفا، فاقد للملامح، أين يذوب الفرد في الكتلة، وتفقد الوجوه خصوصيتها، فيتحوّل الآخر إلى كتلة خانقة تُحاصر الأنا وتدفعها نحو الإحساس بالاختناق والتهديد، فالميترو لا يمثل فضاء مكانيا كما هو معروف، وإنّما هو رمزٌ نفسي لواقع تُسحق فيه الذات تحت ثقل الجماعة، حيث يشعر عبد الرحمن أنّه محمول قسرا داخل حركة لا يملك التحكم فيها، وكأنّ وجوده مهّدّ بالذوبان أو المحو، وفي مقابل ذلك، يتحرّك الآخر في هذا السياق بين قطبين متناقضين التهديد والخلاص، فهو من جهة مصدر خوف؛ لأنّه يسلب للأنا فرادتها ويذكّرها بعجزها، ومن جهة أخرى، أفقُ رغبة دفينّة، إذ لا تستطيع الذات أن تعيش خارج العلاقة به، فهذا التوتر الجدلي يجعل العلاقة بالآخر علاقة انجذاب ونفور في الوقت ذاته؛ فعبد الرحمن يرفض الجموع، لكنه لا يستطيع الانفصال عنها، وينفر من المجتمع، لكنه يطلب اعترافه، ويخشى المرأة، لكنه يبحث فيها عن تعويض رمزي لنقص داخلي.

أمّا المرأة، بوصفها أحد تمثّلات الآخر، فتتجاوز كونها شخصية سردية لتغدو آخرا نفسيا مضاعفا تختلط فيه الرغبة بالخوف، والحنين بالخذلان، فهي مساحة إسقاط لأحلام الأنا المجهضة، وفي الوقت نفسه مرآة تفضح هشاشتها وعجزها عن إقامة علاقة متوازنة، ليكون الآخر الأنثوي ساحة صراع بين ما تشتميه الذات وما تخشاه من فقدان السيطرة، كما يتحدد الآخر في صورة المؤسسات والمجتمع بوصفهما قوى مجردة، باردة، لا تُصغي ولا تمنح المعنى، وههنا يبلغ الاغتراب ذروته، إذ تشعر الأنا أنّها محاصرة داخل نظام لا يعترف بفرديتها، فيتعمّق الإحساس بالوهم، ويصبح العبور إلى الضفة الأخرى فعلا رمزيا للخلاص،

لا جغرافيا، وإنما نفسيا ووجوديا، حيث يقول: "كأنها كتلة واحدة لا تعبأ بالآخرين، تتكاثف، تتزايد، تتساقط أطرافها، وتظل متماسكة ككائن خرافي يتجدد كل حين..." (مونسي، على الضفة الأخرى من الوهم، 2002، صفحة 07)، حيث تتشكل علاقة الأنا بالآخر في وعي بطل السرد عبد الرحمن بوصفها علاقة مأزومة جدلية، مشدودة على الدوام إلى منطق الصراع لا التوازن، إذ يظهر الآخر كقوة ضاغطة تتسلل إلى الذات وتعيد تشكيلها من الداخل، فالبطل المحمل بصدمات متراكمة من العنف والجريمة وذاكرة الصراع الاستعماري وندوب العشرية السوداء، لا يواجه الآخر من خارج، وإنما يصارعه في داخله، إذ تتحول هذه التجارب القاسية إلى جراح نفسية مفتوحة تُنتج اغترابا هوياتيا عميقا، وتزعزع استقرار الأنا في علاقتها بذاتها وبالعالم.

الأمر الذي يبرز عقدة الآخر لدى عبد الرحمن على شعور دائم بالتهديد نابع من تاريخ جمعي مثقل بالقهر والدم، جعل الآخر - في تمثالاته المتعددة - قرينا للعنف والإقصاء؛ فالآخر قد يكون مستعمرا خلف ذاكرة الهيمنة، أو جماعة عنيفة أعادت إنتاج القتل باسم الإيديولوجيا، أو مجتمعا صامتا اعتاد التعايش مع الفاجعة، فصار الآخر صورة مركبة تتداخل فيها الذاكرة الفردية مع الذاكرة الجمعية، فتفقد الأنا قدرتها على الفصل بين ما هو ذاتي وما هو تاريخي.

وتتكرر جدلية الأنا والآخر في الرواية عبر تصوير الآخر الجمعي بوصفه كتلة ساحقة لا تعترف بالفرد ولا تمنحه موطئ قدم داخلها، فالجماعة تظهر كقوة تزويب ومحو تفرض إيقاعها العنيف على الذات، وتجعلها تشعر بأن وجودها مهدد في كل لحظة، وأمام هذا السحق الجماعي، تنكفئ الأنا على ذاتها، وتلوذ بالصمت كآلية دفاع نفسي تحتمي بها من الانهيار، ومن رحم هذا التوتر يولد الاغتراب الهوياتي، حيث يشعر عبد الرحمن أنه عالق بين هويات متنازعة: هو ابن تاريخ مثقل بالجراح، وذات تبحث عن معنى خارج سرديات الدم والهيمنة، غير أن الآخر في صوره المتعددة لا يكف عن مطاردته، فيذكّره على الدوام بانكساره، ويعيد إنتاج شعوره بالعجز والالانتماء، فأضحت الهوية سؤالاً مفتوحاً، لا معطى مستقراً، وتكون الذات في حالة تفاوض دائم مع الآخر، تفاوض لا يخلو من الألم والخذلان.

إن رواية على الضفة الأخرى من الوهم من خلال هذه الجدلية المعقدة، تكشف عن مأساة جيلٍ بأكمله، تشكل وعيه في ظل العنف والاستعمار والحرب الأهلية، فالآخر الجمعي حين يُقدّم في صورة قوة قاهرة لا يسحق الفرد فحسب، حيث يعطل إمكانات المصالحة مع الذات، ويحول الوجود إلى حالة من

التيه الدائم، ما يجعل صراع عبد الرحمن مع الآخر تعبيراً عن صراع الأنا مع ذاكرة لا تهدأ، ومع عالم لا يمنح الطمأنينة هوية تتشكل على حافة الانكسار والبحث المستمر عن خلاص مؤجل.

فمسألة الصراع العقدي بين الأنا والآخر في الرواية تتقاطع فيه أسئلة الهوية الوطنية مع جراح الذاكرة الاستعمارية وآثار السلطة وهيمنة الصورة، فمن منظور التحليل النفسي، لا سيما في ضوء ما صاغه جاك لاكان حول الوظيفة المراتية (لاكان، 2010، الصفحات 04-05)، لا تكتمل الأنا إلا عبر انعكاسها في الآخر؛ غير أنّ هذه المرأة لا تمنح الذات دائماً صورة مطمئنة، إذ قد تكشف هشاشتها أو تفضح المسافة الفاصلة بينها وبين المثل الذي تنوّهه عن نفسها، فلا يعكس الآخر في الرواية وحدة الأنا، حيث يفضح تشظّيها، ويحوّل فعل التماهي إلى لحظة صادمة من الانكشاف، ويتخذ الآخر الاستعماري بُعداً رمزياً كثيفاً بتشكيله في صورة نفسية متجذّرة في اللاوعي الجمعي؛ فشخصية البرتغالي تتحوّل إلى مرآة قاسية ترى فيها الأنا الوطنية صورتها المكسورة، حين يلمح عبد الرحمن في هذا الآخر وجه الخور والجبن، فلا يكون بصدد إدانة الآخر وإنّما يواجه ذاته في أكثر لحظاتها هشاشة، لتتكسر الصورة البطولية التي كانت الأنا تتغذى بها، ويظهر التماهي اللاكاني في أكثر أشكاله إيلاماً: الآخر ليس نقيضاً، وإنّما شبيهاً يعرّي الوهم، ويكشف أنّ ما نُسقِطه عليه من ضعف هو في العمق جزء مكبوت من ذاتنا.

أمّا الآخر السلطوي، فيحضر بوصفه امتداداً لهذا التشظّي، إذ يتشكل في هيئة قوة رمزية تفرض خطابها، وتعيد إنتاج الخضوع والخوف، فهو الآخر الذي لا يرى بقدر ما يُحسّ ويمارس سلطته عبر الإقصاء والتهميش، ويعمّق اغتراب الأنا الوطنية عن ذاتها، وفي مواجهته، تفقد الذات قدرتها على الفعل، وتحوّل إلى وعي مأزوم يتأرجح بين الرغبة في المقاومة والعجز عن الانفلات من شروط القهر، وعلى مستوى آخر أنثوي، تتجسّد شخصية كورين كمرآة نفسية مغايرة أقلّ عنفاً لكنها لا تقلّ إرباكاً، فهي تمثل آخراً يمنح الأنا الدفء والاحتواء، ويعيد إليها شعور الاعتراف والاهتمام، غير أنّ هذا الحضور العاطفي نفسه يوقظ داخل عبد الرحمن توترات دفيئة تتصل بالخوف من الارتباط، ومن فقدان السيطرة على الذات، فحين يصف السارد حضورها بأنّه ضرورة دافئة، لا غنى له عنها (مونسي، على الضفة الأخرى من الوهم، 2002، صفحة 25)، فإنّه يشي بعلاقة تقوم على التعلّق بقدر ما تقوم على القلق؛ علاقة تكشف هشاشة الأنا أمام العاطفة، وتعرّي ارتباطها في التوفيق بين الرغبة والاستقلال.

يفهم من سياق ما ذكر أنّ الآخر الأنثوي لا يُشكّل تهديدا مباشرا، حيث يعمل كمرآة ناعمة تُظهر تصدّعات الهوية العاطفية والجنسية، وتكشف المسافة بين ما ترغب الأنا في أن تكونه، وما تخشاه أن تصبح إليه، فالآخر يحرك الأسئلة أكثر مما يقدم الإجابات، ويجعل الذات في حالة تفاوض دائم مع ضعفها وحاجتها، وتحصيلا على ذلك، يتأسس صراع الأنا الوطنية مع الآخر، في تمظهراته الاستعمارية والسلطوية والأنثوية على منطقتي مرآتي لاكاني، حيث يصبح الآخر شرطا لتكوّن الذات، وفي الوقت نفسه مصدرا لقلقها وتشظيها، فالرواية تقدّم الآخر كصورة نفسية تُعيد الأنا عبرها اكتشاف هشاشتها، وتدرك أنّ هويتها بناء متقلّب يتشكّل على تخوم الوهم والوعي، بين الرغبة في التماسك والخوف من الانكسار، ويتجاوز بناء الشخصية في رواية على الضفة الأخرى من الوهم حدود التمثيل الساكن للذات، ليتحوّل إلى مسار ديناميّ تتكشف فيه الأنا وهي تعبر مناطق الانكسار والاعتراب نحو أفقٍ متردّد من الوعي والتحرّر؛ فالشخصية تُقدّم ذاتا مهمّشة مأهولة بشعور خفيّ باللأوجود النفسي، حيث يحيا الفرد على هامش ذاته قبل أن يُقصي عن العالم، ومن هذا الهامش، يتشكّل وعي عبد الرحمن، وعيّ جريح يرى نفسه دوما أقلّ مما ينبغي، وأكثر مما يُحتمل، حيث يتحدد صوت الآخر على أنّه قوة رمزية تُعيد إنتاج التهميش داخل الذات نفسها، فالآخر -في تجلّياته المتعدّدة- تمثيل لمرآة قاسية تعكس للأنا صورتها المنقوصة، وتذكّرها بأنّ وجودها معلق دائما على اعترافٍ مؤجّل، واستنادا على ذلك تتكوّن عقدة اللأوجود النفسي؛ إذ يشعر عبد الرحمن أنّ حضوره في العالم هشّ، مهدّد بالإنكار، وأنّ صوته لا يكتمل إلا عبر صدى الآخر، حتى وإن كان هذا الصدى جارحا أو مُربكا.

ويمرّ البطل بمرحلة انتقالية دقيقة ينتقل فيها من ردود فعل عنيفة غريزية إلى شكل من الوعي الذاتي المتدرّج، غير أنّ هذا التحوّل يتفجّر من عمق التوترات النفسية المتراكمة، ومن انكشاف الأنا المتكرر على شظاياها في مرايا الآخرين، فالماضي -كما يعترف عبد الرحمن- يعاود الظهور في أقنعة جديدة يطارده في الأمكنة التي توهم فيها الخلاص؛ فيكون الاعتراب نمط وجود يُعيد إنتاج نفسه كلّما ظنّت الذات أنّها تجاوزته، وتكون الكتابة والتحصيل المعرفي في هذا السياق فعلا رمزيا للتحرّر، ومحاولة لإعادة امتلاك الذات بعد طول تبيد، غير أنّ طريق التحوّل يظلّ محفّوفا بالهشاشة والانتكاس؛ فكلّ لحظة صفاء قد تعقبها لحظة انهيار، وكلّ وعي مكتسب يظلّ مهدّدا بالسقوط، ويتجلّى ذلك بوضوح في علاقة عبد الرحمن بكورين، حيث يتأرجح بين الانجذاب العاطفي والانفصال النفسي في تعبيرٍ صارخ عن هشاشة الأنا أمام الآخر الأنثوي، فهي لا تُخيفه بذاتها بقدر ما توقظه فيه من حاجة دفينّة، ومن خوف من الانكشاف، ومن

إدراك مؤلم للفراغ الداخلي الذي يحاول عبثاً أن يملأه، وهنا تتجلى المقولة اللاكانية التي ترى الرغبة متجهة لا نحو الموضوع، بل نحو النقص الذي يسكن الذات نفسها (مونسي، على الضفة الأخرى من الوهم، 2002، صفحة 44).

5. خاتمة:

وفي ختام قراءتنا البحثية، نستشف جمالية رواية على الضفة الأخرى من الوهم في قدرتها على تحويل التجربة الإنسانية القاسية إلى نسيج لغوي مشحون بالدلالة، حيث لا يُبنى السرد على تعاقب الوقائع بقدر ما يتشكل من توتر داخلي كثيف يجعل من الوعي مسرحاً للأحداث، ومن اللغة أداة لاختبار الألم والذاكرة معاً، فالروائي لحبيب مونسي لا يقف عند حدود وصف العالم الخارجي، وإنما ينفذ إلى طبقاته النفسية العميقة مستنطقاً الصمت ومفككا الهواجس ومصغياً إلى ارتجافات الذات وهي تتلمس وجودها في فضاء مهّد بالانمحاء، لتتكئ الرواية على لغة موحية، وشفيفة حيناً، وخشنة حيناً آخر، تتناوب فيها الجملة السردية بين الامتداد التأملي والانقباض الإيقاعي، وكأنّ الأسلوب ذاته يخضع لحالة الأنا المتشظية، فالمكان يتشكل في نسق كيان نفسي ضاغط، والزمان حيث يتكسر إلى ومضات استرجاع وارتدادات ذاكرية تجعل الماضي حاضراً في كتابة تنحت الألم كأثرٍ مستمرّ يعيد تشكيل الوعي، وبهذا الاشتغال الجمالي، فقد مثّلت الرواية عودة بالأنا والآخر صوب ذاكرة التاريخ وأحداثه الدامية: كالاستعمار والعشرية السوداء وصور الجريمة التي شكّلت صراعاً هوياتياً بين عالم الشرق والغرب، ومظاهر العنف الاجتماعي والشرخ الفكري ...، هي صور عدة أثّرت لبعد نفسي تتصارع في مضامينه شخصيات صنعها المخيال السردى لإدراك حقيقة الواقع الحيّاتي وفق نسق جمالي يخالف المألوف، لتُغادر الرواية منطق الحكاية التقليدية لتؤسس سرداً قائماً على الاستبطان، حيث يصبح كل تفصيل لغوي علامة على تصدّع داخلي، وكل صورة بلاغية امتداداً لقلق وجودي لا يجد مهرباً من ذاته.

أمّا على مستوى الرؤية، فتظهر جمالية الرواية في هذا التداخل العميق بين الفردي والجمعي، والأنا الجريحة وذاكرة الوطن المثقلة، حيث تنصهر التجربة الشخصية لعبد الرحمن في سياق تاريخي واجتماعي أوسع دون أن تفقد خصوصيتها أو تتحوّل إلى خطاب مباشر، فالرواية تنجح في تشخيص الاغتراب كقدر نفسي يجعل الذات معلّقة بين ضفتين: ضفة الواقع القاسي، وضفة الوهم الذي يُغري بالخلاص ثم يتبدّد

ويذبل، فأضحى الآخر بتعدّد تمثّلاته عنصرا جماليا فاعلا في تشكيل هذا الأفق المأزوم؛ إذ يتحرّك بين كونه تهديدا وجوديا وشرطا للاعتراف، فتتشكل من هذه المفارقة طاقة سردية عالية تُبقي النصّ مشدودا إلى توتّر دائم؛ فجمال الرواية يكمن في الكيفية التي تقول بها من خلال الاقتصاد الدلالي والانزياح البلاغي الذي يجعل من اللغة مساحة مقاومة ومن السرد فعل مساءلة للذات والعالم، لتشكّل رواية على الضفة الأخرى من الوهم نفسها بوصفها تجربة جمالية وفكرية معا تُراهن على القارئ بكونه شريكا في تفكيك المعنى، وفي عبور هذا القلق الوجودي الذي يمنح النصّ كثافته، ويمنحه -في الآن ذاته- قيمته الفنية والإنسانية العميقة.

مناهل البحث

- (1) أحمد حيدوش. (2009). إغراءات المنهج وتمنع الخطاب (الإصدار 1). الجزائر: دار الأوطان.
- (2) جاك لاكان. (2010). الكتابات. (لطيفة الديلمي، المترجمون) بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- (3) حبيب مونسي. (2002). على الضفة الأخرى من الوهم. وهران، الجزائر: دار الغرب للطباعة والنشر.
- (4) حسن المودن. (2009). الرواية والتحليل النصي قراءة من منظور التحليل النفسي (الإصدار 1). الجزائر: الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف.
- (5) حسن المودن. (أوت، 2019). الأدب والتحليل النفسي. كتاب الدوحة، مجلة الدوحة، 142، 07.
- (6) سيغموند فرويد. (1975). التحليل النفسي والفن دافينشي ودوستوفسكي (الإصدار 1). (سمير كرم، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- (7) عبد المقصود عبد الكريم. (1999). جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي. المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة.
- (8) مجموعة مؤلفين. (1978). مدخل إلى مناهج النقد الأدبي. الكويت: سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.